

**قراءة في كتاب: الماصونية في الوطن العربي
زمن الاستعمار الأوروبي تونس مثالا من 1856 إلى 1956
لمحمد لطفي الشايبى**

**Masonry in the Arab world the time of European colonialism,
Tunisia as an example, from 1856 to 1956. Mohamed Lotfi El
Shaibi.**

د. عبد الباسط الغابري

**باحث برتبة أستاذ محاضر
مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان**

ghabri_abdelbaset@yahoo.fr



قراءة في كتاب: الماصونية في الوطن العربي زمن الاستعمار الأوروبي تونس مثالا من 1856 إلى 1956 لمحمد لطفي الشايبي

د. عبد الباسط الغابري

تمهيد:

إذا كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة إحدى وألفين قد شكّلت دافعا قادحا لدخول العالم في حرب غامضة ضدّ ما يعرف بالإرهاب، فإنّه منذ العقد الثّاني من القرن الحادي والعشرين تسارعت الأحداث بشكل دراماتيكيّ لتشمل مختلف المجالات السّياسيّة (ثورات الرّبيع العربيّ) والاجتماعيّة (تزايد الحركات الاحتجاجية مثل حركة السّترات الصّفراء بفرنسا) والاقتصادية (الانكماش أو التضخّم) والبيئيّة والصحية (التلوّث والأوبئة).

ولئن أوهم تسارع تلك الأحداث بوجود فوضى تسود العالم، فإنّ بعض البحوث النوعيّة سعت إلى تجاوز ذلك الحكم الظّاهر بطرح إشكاليّات "مسكوت عنها" عسى أن تنجح في كشف النّظام المتحكّم في تلك الظّواهر وتوجيهها.

يمكن القول أنّ كتاب "الماصونية في الوطن العربيّ زمن الاستعمار الأوروبيّ تونس مثالا من 1856 إلى 1956" الصادر عن سوتيميديا للنشر سنة 2019 لمحمد لطفي الشايبي من المؤلّفات النّوعيّة المنخرطة في تيار تجاوز السّائد وعقلنة اللّامعقول. فكاتبه مرّوخ له عديد المؤلّفات المنشورة في قضايا التّاريخ المعاصر والراهن. فضلا عن اضطلاعاه بمهام إداريّة وعلميّة هامّة مثل إدارته للمعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر بجامعة منوبة.

تتّصل الإشكالية الأساسيّة التي انبنت عليها مختلف محاور هذا الكتاب بمدى اعتباريّة الأحداث التي يشهدها العالم العربيّ عامّة وتونس تحديدا خلال المرحلة الحديثة والمعاصرة. وقد اقترنت هذه الإشكالية بسؤال محوري مضمّن يمكن تحديده بالرجوع إلى سياق انبثاق فكرة إنجاز هذا الكتاب. إذ كان في الأصل محاضرة ألقاها المؤلّف بالمقرّ الفرعي لجامعة الدّول العربيّة بتونس يوم 18 مارس 2017 في موضوع

الحضور الماصوني في الوطن العربي زمن الاستعمار الأوروبي¹. وما من شك في أنّ موضوع المحاضرة ومكانها وزمانها يوجي بوجود قلق معرفي ونفسي ناجم عن صعوبة استيعاب المستجدات الخطيرة التي يمرّ بها العالم العربي. لذلك يمكن القول أنّ ذلك السؤال المحوريّ يتعلّق بكيفية تفهّم تلك المستجدات في إطار مقارنة تاريخية ملامّة بالأبعاد الجيوستراتيجية التي شهدتها العالم منذ الثورة الصناعيّة، وتدعّمت بعد سقوط جدار برلين وبروز نظام دولي جديد معزّزا بتنظيرات "نهاية التاريخ" و"صراع الحضارات" و"الكونية" و"الحروب الاستباقية والبيولوجية" وغير ذلك.

بهذا المعنى فإنّ الرؤية التي أطّرت مختلف الأفكار المنتظمة في هذا الكتاب قائمة على رهان معرفي يروم التّفاد إلى البنى العميقة التي أسهمت في تشكّل الظاهرة الاستعمارية بالبحث في طبيعتها وآلياتها باعتبارها لم تكن تغلغلا اقتصاديا وعسكريا فقط، وإنّما كذلك غزوا ثقافيا يستهدف إعادة صياغة الشخصية والهوية الحضارية بالمغرب العربي خاصة وتونس تحديدا.

قدّم المؤلف، انسجاما مع تلك الرؤية، موقفا سلبيا من حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1798 التي درج جلّ الباحثين العرب على إبراز تأثيرها الإيجابي في انبلاج فجر النهضة العربية الحديثة. إذ نبّه المؤلف إلى أنّ تلك الحملة بقدر ما كانت تندرج ضمن الشّعار الرائج وقتها حول ما يسمّى بالرسالة الحضارية للرجل الأبيض، فإنّها كانت تصديرا للثورة الفرنسيّة التي لم تظهر - حسب رأيه - عفويا، وإنّما اقترنت بعمل خفيّ مقنّن سبق له كذلك توجيه الثورة الإنجليزيّة خلال القرن السابع عشر وحرب الاستقلال الأمريكيّة خلال القرن التاسع عشر².

وقد ربط ذلك العمل بتنظيم "الماصونية". فكيف يمكن تحديد الماصونية؟ وفي ما تتمثّل أهمّ آلياتها التّأثيرية؟ وإلى أي حدّ أسهمت في تقرير مصير العالم عامّة وتونس تحديدا؟

1- الماصونية وأهمّ آليات عملها:

1-1- في تحديد الماصونية:

بدا الشايبي واعيا بالتباس معنى الماصونية في الخطاب العربي المعاصر باعتبار أنّ تمثّلاتها تكاد تتقاطع مع الأساطير المؤسّسة للمخيال الفردي والجمعي. لذلك نوع مقارباته ومرجعياته في محاولة تحديد موضوعي للماصونية بصفتها ظاهرة تاريخية وحضارية قابلة للرصد والدّرس والتّمحيص.

وقد انبنى ذلك التّنوع على عديد المستويات مما يعني أنّنا أمام ظاهرة مركّبة لا يمكن اختزالها في بعد واحد. وهو ما فرض على الكاتب اعتماد منهج تفاعلي مركّب برزت معالمه في تنوع مصادر تعريف الماصونية

1- محمد لطفي الشايبي، الماصونية في الوطن العربي زمن الاستعمار الأوروبي، تونس مثالا، من 1856 إلى 1956، تونس، سوتبيديا للنشر، 2019، ص 7.

2- اعتمد الكاتب في إقرار وجهة نظره على عديد المصادر التاريخيّة المهمّة يمكن مراجعة بعضها ضمن الهامش رقم 1، ص 15 من المصدر. نفسه.

بين مصادر غربيّة ومصادر عربيّة، وفي تعدّد مرجعيّات العيّنات التي اعتمدها. وكذلك في التّمييز بين أنواع متفرّعة للماصونية. وسنحاول في ما يلي تقديم إحاطة مجملّة بمختلف تلك المستويات.

تنوّعت المصادر التي اعتمدها المؤلّف في تحديد معنى الماصونية وتفرّعت سواء في ما يخصّ المصادر العربيّة أو المصادر الغربيّة. وسنكتفي بذكر أهمّها. ففي ما يخصّ المصادر الغربيّة عاد المؤلّف إلى ما يعتقد في كونه "أصولاً" مؤسّسة للماصونية مثل كتاب القس الاسكتلندي جايمس أندرسون James Anderson (1739-1684) الموسوم بـ "دساتير الماصونية" الصادر سنة 1723 بصفته مصدراً أساسياً¹.

كما أحال على أعمال عديد المؤرّخين المختصّين في الظّاهرة الماصونية مثل بيار إيف بوربار Pierre Yves Beaurepaire وبول نودن Paul Naudon وغيرهما.. فضلاً عمّا دوّنته الصّحافة الفرنسيّة بتونس أثناء تغطيتها للزيارات التّبشيريّة والدّعائيّة التي أداها عدد من أعلام الماصونية إلى المستعمرات مثل تلك الزّيارة التي أداها دوكارقروبال Grobel Dequaire الموفود من المحفل الشّرقي الكبير إلى تونس سنة 1896 للتعريف بالماصونية. وقد نقلت جريدة "لاديباشتينيزيان" La DépêcheTunisienne أهمّ مضامينها آنذاك².

أمّا عن الموسوعات الغربيّة العامّة والمختصّة فقد استعان بها المؤلّف لتثبيت أفكاره ودعمها. فمن ذلك أنّه أشار إلى تعريف دائرة المعارف الكونية Encyclopédia Universalis للماصونية مثلاً³.

يمكن القول أنّ مختلف تلك المصادر والمراجع تقدّم تعريفات متباينة للماصونية تجمع بين الأسطورة والواقع والمثال والتّاريخ والكلي والنسبي مع هيمنة جليّة للطابع التّنظيمي على بعضها. ومن ضمنها نشير إلى ما يلي:

-ربط المؤرّخ بوربار للماصونية بمحافل البنائين الإنجليزيين خلال العهد الوسيط. وهي محافل ورثت مجموعة من الأساطير المؤسّسة التي أرجعت بداية عمل البناء إلى ما قبل حصول الطوفان العظيم في عهد النّبي نوح. ثم أعيد بعثها مع الإله الإغريقيّ هرمس Hermès. ولم يقع تطوير هذه التّصورات إلاّ بداية من سنة 1640 حيث انفتحت المحافل على الملاحدة و"العلمانيّين الأجنب"⁴.

-تقدّم الموسوعة الكونية (EU) تعريفاً تمييزياً للماصونية. إذ تصفها بكونها مؤسّسة خيريّة وجمعيّة فكريّة تجمع "رجالاً أحراراً وذوي أخلاق حميدة". وتقوم على مبادئ المساواة والكونيّة⁵. وهو تعريف لا ينسجم مع ما عودتنا عليه هذه الموسوعة العلميّة الجادّة من نزعة نقديّة وتعمّق في مناقشة المفاهيم يتجاوز ظاهر المعاني إلى التّفاد إلى معانيها الثّواني والثّوالث.

1- عهدت مهمّة تنقيح اللوائح والأوامر والقوانين العمومية الماصونية الأساسيّة للكنيسة البريسبتريّة Eglise Presbyterienne الراضة للسلطة البابوية. راجع المرجع نفسه، ص 14-19.

2- محمد لطفي الشابي، مصدر سابق، ص 21.

3- المصدر نفسه، ص 29.

4- المصدر نفسه، ص 18.

5- المصدر نفسه، ص 29.

-التعريف الذي أوردته الصحافة الفرنسية بتونس المقرّبة من الإقامة العامة على لسان قروبال موفود الماصونية إلى تونس أوضح فيه أنّ الماصونية ليست جمعية خيرية فقط، وإنما هي بناء قائم على أفكار التسامح وحرية المعتقد والديمقراطية، مرجعا تأسيس الماصونية الحديثة إلى سنة 1717¹.

ولما صدر قانون اللائكية يوم 9 سبتمبر 1905 تعرّضت صحيفة بريد تونس Courrière de Tunisie الناطقة الرسمية باسم الفيدرالية الراديكالية الفرنسية بتونس إلى مسألة الماصونية. وقد تضمّن ذلك التعريف الإشارة إلى دور الماصونية في قيام الثورة الفرنسية سنة 1789 وإلى جذور الماصونية التي تمتد إلى الحقبة الفرعونية!²

لعلّ أهمّ ملاحظة يمكن الإشارة إليها بخصوص هذه التعريفات أنّها فضلا عن نزعتها التطمينية تعمّدت تغييب عدّة معطيات مهمّة. فمثلا تحديد قروبال لم يشر إلى أنّ الماصونية الفرنسية ألغت الاعتقاد في المهندس الأكبر منذ سنة 1877، وفتحت الباب واسعا إلى الإلحاد. وهو ما سيكون له تداعيات بالنسبة إلى بعض العرب الماصونيين مثل الأمير عبد القادر الجزائري.

وقد اعتمد مؤلف الكتاب نفس ذلك الخيار التّنوعيّ في بحثه عن دلالة الماصونية في الخطاب العربيّ الحديث والمعاصر. إذ تراوح ذلك التّنوع بين موسوعات علمية ودوريات معروفة ومؤلفات اهتمّت بالبحث في الماصونية.

ليس من المبالغة القول بأنّ التناقض أو التّضارب يعدّ السّمة الأساسيّة التي تتسم بها تحديدات الماصونية في الخطاب العربيّ. إذ نجد مواقف متقابلة مع ميل بين للريبة والشكّ في حقيقة نزعة الماصونية الإنسانيّة. فإذا كان جرجي زيدان في كتابه حول "تاريخ الماصونية العام" أبدى تفهّما للطابع الماصونيّ السّريّ انطلاقا من عدّه مرحلة عابرة ضمن مسارها الطّويل، فإنّ لويس شيخو اتّهم الماصونية بكونها تستهدف تدمير الهيئات الاجتماعيّة وتخريبها. ومن ثمّة فهي على عكس ما تدّعي لا علاقة لها لا بالبناء ولا بالصدق³.

يتماهى الموقف الذي صاغه محمد رشيد رضا في مجلّة المنار مع موقف شيخو، بل يتعمّق فيه أكثر من خلال بعض التّفاصيل التي ركّزت على أمرين يتعلّق أولهما بمفارقة الواجب والحاصل. إذ لئن أعلنت الماصونية أنّها وليدة فكرة مقاومة الكنيسة التسلّطية، فإنّها كانت تستهدف أساسا الإسلام والمسلمين لغاية السّيطرة عليهم باسم الاخوة الإنسانية ونبد التّعصّب والتّسامح.

أمّا الأمر الثاني فيتّصل بهويّة مؤسّسي الماصونية ونوعيتهم. إذ عدّهم رشيد رضا يهودا ونصارى. وقد استند في رأيه إلى الإشارات والرّموز الماصونية التي أرجعها إلى الكتاب المقدّس. ففكرة البناء تعود من أصلها إلى قصّة بناء الهيكل في عهد النّبي سليمان⁴.

1- المصدر نفسه، ص 21.

2 - La Courrière de Tunisie, 21 février 1906.

3- راجع: لويس شيخو، السّر المصون في شيعة الفرماصون، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1910.

4- محمد لطفي الشاوي، مصدر سابق، ص 31-32.

وقد أدرج الشابي هذه المواقف التّشكيكية ضمن ما يعرف بـ "العدائية الضديّة للماصونية" Antimaconne، مستندًا في ذلك إلى تعريف موسوعة مصطلحات النّقد العربيّ الإسلاميّ المعاصر التي أبرزت خطورة الماصونية في التّأثير الخفيّ على المؤسّسات والنّظم بما يحقّق غاياتها التي صاغها علماء وجامعيّون يخفون مرجعيّاتهم التلموديّة والتزاماتهم بيروتوكولات حكماء صهيون تحت شعارات العلم والنّزعة الإنسانيّة¹.

أمّا تعدّد مرجعيّات العيّنات التي اعتمدها مؤلّف الكتاب فتعني في هذا الصّدّد تنوّع مصادر تاريخيّة الظّاهرة الماصونية سواء في إطارها الكونيّ أو في إطارها العربيّ. يتعلّق ذلك التنوّع بالامتداد الزّمنيّ للمصادر المكتوبة المستثاق بها في المعرفة التّاريخيّة. إذ تمتدّ تلك المصادر من القرن السّابع عشر إلى الزّمن الرّاهن. ويمكن تحديد أبرزها في العناوين التّالية:

- دساتير الماصونية (1723) للقسّ جيمس أندرسون وضّح فيه بدايات الماصونية وقوانينها².

- مذكّرات جان قابريال نيالو سارجي Jean Gabriel Niallo Sargy (1832-1767) كاتب نابليون الشّخصيّ ومرافقه أثناء الحملة على مصر. وقد أكّد فيها الطّبيعة الماصونية لحملة نابليون على مصر سنة 1789 ومخاطلته باعتماد طريقة التّنويه بالإسلام مدخلا لكسب ثقة الفاعلين المصريّين³. وقد اعتمد بحثا للأمركيّ جون كول Juan Cole حول غزوات نابليون الصّادر سنة 2007 والمترجم إلى اللّغة الفرنسيّة سنة 2014⁴.

- مؤلّفات المؤرّخ هنري لورنس Henry Laurens الذي أثبت تأثر نابليون بأفكار المستشرق الفيلسوف الماصونيّ كستنانتان فرنسوا شاسبوف دي لا جيرودي الكونت فلناني Constantin François Chasseboeuf de la Giraudais conte Volney (1880-1757)⁵.

- مراجعات المؤرّخة الفرنسيّة جورجيات إلجاي Georgette Elgey لمراسلات وزارة الشّؤون الخارجيّة الفرنسيّة في ذلك الغرض الذي كشف تهديدات نابليون باحتلال الجزائر وتونس بعد حملته على مصر ومنزعها الماصونيّ المتخفيّ تحت شعارات الثّورة الفرنسيّة وكونيّة حقوق الإنسان⁶.

- تصوّرات المحلّل السّياسيّ أنطوان رفرشون Antoine Reverchon في إحدى أعداد نشريّة جريدة "لوموند" المختصّة Le monde serie الصّادرة في عدد أكتوبر- ديسمبر 2015 الذي خصّص لمشروع الامبراطوريّات ونوعيّة توسّعاتها⁷.

1- راجع: هامش رقم 1 ص 31

2- محمد لطفي الشابي، مصدر سابق، ص 107-108.

3- راجع الهامش رقم 4، ص 42.

4- الهامش رقم 1 ص 43.

5- المصدر نفسه، ص 40.

6- راجع الهامش 4، ص 43.

7- هامش 3، ص 43.

تثبت تلك المرجعيّات وغيرها صعوبة الإحاطة بالظاهرة الماصونيّة. إذ ينبّه المؤلّف إلى طابعها المركّب والتطوّري لدرجة وجود عدّة أنواع مختلفة من الماصونيّة حسب المعيار المعتمد في دراستها. فهناك ماصونيّة عمليّة وماصونية رمزيّة. كما هنالك ماصونيّة فرنسيّة وأخرى إنجليزيّة وغيرهما.

يرجع تاريخ الماصونيّة العمليّة إلى القرن الثّاني عشر ميلاديا حين تمّ تأسيس جماعة حراس الهيكل L'Ordre de la Milice du Temple بالقدس سنة 1118م على أيدي مجموعة من المهندسين والبنّائين. وترتكز فكرتهم على وجوب حماية الأرض المقدّسة والتّمّد بأوروبا الغربيّة. وهو ما مكّهم من نيل حظوة هامة بعد أن تحوّلت جمعيتهم إلى مؤسّسة لها شعائرها وطقوسها الخاصّة. وهو ما يفسّر احتفالهم بالرموز الهندسيّة¹.

أمّا الماصونيّة الرمزيّة فاقترنت باجتماع محافل لندن الأربعة سنة 1703 لتوسيع دائرة الانتماء الماصونيّ بعدم الاقتصار على البنّائين والمهندسين. ولهذا فقد تمّ تطوير فكرة المعتقد الماصونيّ من عمليّ إلى رمزيّ. فبالنسبة إليهم تعني الصّخرة أو الحجر "حقيقة إنسانيّة ينقشون عليها ما يخصّ الإنسانيّة"². لذا فإنّ ما يجمع أعضائها يكمن في التّضامن الثّقافيّ والروحيّ والإنساني³.

لم يقتصر ذلك التطّور على تحوّل الماصونيّة من طابع عمليّ إلى طابع رمزيّ، وإنّما تشمل كذلك قدرتها على التكيّف مع مختلف البيئات والوضعيات. لذا يمكن الحديث عن ماصونيّة فرنسيّة وماصونيّة إيطاليّة وماصونيّة إنجليزيّة وغير ذلك. ولئن اشتركت جميعها في الانتماء الماصونيّ، فإنّها متفاوتة في طرق استقطابها وتأثيرها في العالم العربيّ.

ويشير المؤلّف في هذا المضمّر إلى أنّ الماصونيّة الفرنسيّة تعدّ أكثر خطورة لطابعها الاستيطانيّ الاستعماريّ بشمال إفريقيا عامّة والجزائر تحديدا⁴. كما ألغت سنة 1877 فكرة الاعتقاد في المهندس الأكبر للكون⁵ لكي "تنظّم العالم بلا وصاية ربّانية ولا ملكيّة"⁶ على حدّ تعبير جول فيري Jules Ferry.

1-2- آليات السّيطرة والتّمكين:

يربط المؤلّف انكشاف آليات الماصونيّة في السّيطرة والهيمنة بحدث تاريخيّ مفصليّ بهمّ الاحتلال الألمانيّ لباريس بداية من جوان 1940 إلى أوت 1944. إذ استولت حكومة فيشي بقيادة المارشال بيتان Petain على أرشيف بعض المحافل الماصونيّة مثل أرشيف محفل الشّرق الكبير. فشنت حملة على التّنظيم الماصونيّ

1- المصدر نفسه، ص 18.

2- المصدر نفسه، ص 19.

3- أسهم هذا التّحوّل في تطوّر عدد الماصونيّين ومحافلهم. إذ قدر عددهم بستّة ملايين ماصونيّ، وثلاثين ألف محفل ماصونيّ في العالم. راجع: محمد لطفي الشابي، مصدر سابق، ص 19.

4- المصدر نفسه، ص 107-108.

5- المصدر نفسه ص 20-44-45.

6- المصدر نفسه، ص 37.

وعملائه ونشرت أسماءهم بالرائد الرسمي للجمهورية الفرنسية بداية من 29 أوت 1940 إلى 7 نوفمبر 1942.¹

وبقدر ما تنوعت آليات السيطرة والتوجيه، فإنها تضافرت كلها لتحقيق أهداف الماصونية ورهاناتها. ويمكن الاقتصار في ذكر ثلاث آليات بارزة:

● التَّخْفِي والتَّضْلِيل: تحتفظ الماصونية بطابعها السري رغم التأثيرات العميقة التي تحدثها في الدول والمجتمعات. لذلك كانت آلية التَّخْفِي والتَّضْلِيل معتمدة في تدبير الثورات والانقلابات والمتغيرات التي تتوافق مع رهانات الماصونية. فعلى سبيل الدِّكر لم يعد اليوم من شك في أن تصدير الثورة الفرنسية ورسالتها الحضارية راجع أساسا إلى إسهام الماصونية الخفي في الثورتين الإنجليزية والفرنسية وحرب الاستقلال الأمريكية². إذ هي مجموعة حلقات مترابطة. لذا ليس غريبا التقاء الاستعمار والامبريالية والماصونية مثلما نبه إلى ذلك الشايبي مؤلف الكتاب استنادا إلى عديد الخبراء في دراسة الظاهرة الماصونية³.

ولئن بدت الماصونية نزعة مثالية من خلال إظهار مبادئ المساواة والتسامح وحقوق الإنسان ونبد التحيزات الدينية والقومية، فإنها في الحقيقة قائمة على عنصرية مضمرة وإلا كيف يمكن تفسير انخراط جلّ الساسة الفرنسيين الماصونيين في إرساء منظومة الاستعمار ودعمها وما صاحب ذلك من اضطهاد واستغلال واستعباد للمستعمرات وأهاليها؟

يكتسب هذا السؤال وجاهته بالرجوع إلى سياسات الجمهورية الثالثة بفرنسا والمدرسة اللاتكينية المجانية (قوانين 18 جوان 1881 و28 مارس 1882) التي كانت من إنجاز جول فيري وزير التربية ثم رئيس الحكومة الفرنسية مرتين بين سنوات 1880 و1885⁴.

● الاختراق والاستقطاب: رصد الشايبي أنواعا متعددة من الاختراقات الماصونية التي شملت الأحزاب السياسية والجمعيات الخيرية والثقافية سواء في الغرب أو في العالم العربي. ولما كنا قد خصصنا العنصر الثاني من هذه القراءة للتركيز على الاختراق الماصوني بالعالم العربي وتونس تحديدا، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى أهم أشكال ذلك الاختراق بفرنسا بصفتها إحدى أخطر الأقطاب الماصونية.

اكتسحت الماصونية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كافة الأحزاب الجمهورية والليبرالية والاشتراكية والمحافظة والراديكالية الأوروبية⁵. وهو ما أفرز طبقة سياسية ذات انتماءات ماصونية عميقة. ففي الجمهورية الفرنسية الثالثة (1870-1940) رصد المؤلف أحد عشر (11) رئيس جمهورية منضوبا إلى الماصونية من مجموع أربعة عشر (14) تداولوا على الرئاسة، وتسعة وثلاثين (39) رئيس حكومة من مجموع

1- ثبت بعد تحرير باريس من الغزو الألماني أن الماصونية نجحت في إخفاء قسم آخر من أرسيفها. المصدر نفسه، ص 82-83.

2- المصدر نفسه، ص 19.

3- المصدر نفسه، ص 15.

4- المصدر نفسه، ص 66-67.

5- المصدر نفسه، ص 36.

واحد وخمسين (51)، وأحد عشر (11) مقيما عاما من مجموع عشرين (20) تداولوا على إدارة الإقامة العامة الفرنسية بتونس من 1881 إلى 1956¹.

أما الاستقطاب فقد كان ضمن علاقات المصالح المتبادلة وخاضعا لجملة من الشروط التي لا بدّ من توفرها في العناصر المستقطبة التي من أهمها الطموح في السلطة ونزعة تحريرية في ما يخصّ الالتزامات الدينية. فضلا عن ضرورة إتقانها للغة الفرنسية وتشبّعها بالثقافة الفرنسية بالنسبة إلى العناصر العربية والمغربية تحديدا. وهو ما مكّن الماصونية من اختراق دواليب الإدارات وتغلغلها فيها².

كما شمل الاختراق الجوسسة مثلما كان صنيع الجاسوس الفرنسي ليون روش (Léon Roches) (1809-1901) الذي جنّده الاستخبارات الفرنسية لاختراق المحيط الخاصّ بالأمير عبد القادر الجزائري واستغلال تسامحه ومروءته لاستمالته وضمّه للمحفل الماصوني بباريس³.

● الاستدراج والإجهاز: يذكر المؤلف شهادة محمد رشيد رضا في خصوص طريقة استدراج النخب المصرية والإسلامية لا سيما جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. فأوضح أنّ الماصونية تمهّد لأهدافها بتشجيع النخب المستهدفة في بلد ما وتقوية عصبيتهم بعد مسح شخصيتهم والتأكد من تفسّخ روابطهم الدينية والقومية والثقافية، ثم تنتهج تدرّجا في إقناعهم بمعقولية أهدافها وصوابها. لذلك يقبلون حتّى الانخراط في تغيير حكومات بلدانهم والانقلاب على حكامها إنّ كان ذلك ينسجم مع المصالح الماصونية⁴.

وقد وقع في فخّ ذلك الاستدراج كثيرا من رموز النخبة العربية مثل عبد القادر الجزائري وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد العزيز الثعالبي. لذا خيّر بعضهم الانسحاب منها بعد انكشاف حقيقة أهدافها مثل الأمير عبد القادر والأفغاني وعبده.

2- الماصونية بالعالم العربي وتونس تحديدا:

تتسم رؤية المؤلف التاريخية بالتناسق والاتساع والشمولية في ما يخصّ التغلغل الماصوني بالعالمين العربي والإسلامي. إذ مكّنه النفاذ إلى عديد المصادر الأساسية في دراسة الظاهرة الماصونية من اكتشاف خيط ناظم يربط بين مختلف الأحداث الحاسمة التي شهدها العالم منذ فجر العصر الحديث إلى اليوم. وتحديدا منذ اندلاع الثورة الفرنسية وحملة نابليون على مصر⁵ إلى بروز الحركات الإصلاحية والوطنية مشرقا ومغربا وعالم ما بعد سقوط جدار برلين سنة 1989.

وقد قاده ذلك إلى إثبات نتيجة مهمة تخصّ نوعية الاستعمار الذي ابتلي به العالم العربي. إذ يعدّ استعمارا مزدوجا. فهو استعمار ليبرالي (اقتصادي وسياسي) وكذلك استعمار "ماصوني" من خلال الاختراق

1- المصدر نفسه، ص 72.

2- وهو ما سنفصله عند التعرّض إلى الحالة التونسية في العنصر اللاحق.

3- المصدر نفسه، ص 51.

4- المصدر نفسه، ص 35.

5- م المصدر نفسه، ص 63.

الثقافي والأيدولوجي¹. وهو أشدّ خطورة لأنّه خفيّ غير مرئيّ ويستهدف التّحكّم في البنى العميقة المنتجة للنّظم الرّمزيّة والثّقافيّة والقيم الاجتماعيّة والثّروات الماديّة وغير الماديّة.

وسنحاول في ما يلي تحديد أهمّ مسارات تغلّل الماصونيّة بالعالمين العربيّ والإسلاميّ وتونس خاصّة:

2-1- في المشرق:

يعتمد الشّايبي على حملة نابليون المصريّة في تأريخه للتغلّل الماصونيّ بالامبراطوريّة العثمانيّة². وقد توقّف المؤلّف في "التّواريخ" التّأسيسيّة التّالية:

- سنة 1847: تأسيس محفل الأهرام بالإسكندريّة³.

- سنة 1858: تأسيس أوّل محفل ماصونيّ باسطنبول تحت اسم "نجمة اليوسفور"⁴ تزامنا مع نهاية حرب القرم (1853-1888).

- سنة 1858: تأسيس أوّل محفل ماصونيّ بدمشق عن طريق أمريكيّ يدعى روبرت موريس Robert Morris

أكّد على الأهميّة الرّمزيّة والتّاريخيّة لدمشق وبلاد الشّام في الثّقافة الماصونيّة⁵.

- سنة 1873: تأسيس محفل الشّرق الأعظم المصريّ وغيره من المحافل⁶.

يمكن اعتماد شخصيّة جمال الدين الأفغاني مثلا للاختراق الماصونيّ في العقل الإسلاميّ. على الرّغم من منافحة رشيد رضا على خيارات الأفغاني وتبريراته غير المقنعة. إذ ذهب إلى أنّ انتماء الأفغانيّ للماصونيّة كان وسيلة لمقاومة استبداد الخديويّ إسماعيل حاكم مصر وقتها والتّصدّي للإنجليز. وقد استند في دفاعه ذلك إلى رفض الأفغانيّ للوسام الذي منحه له المحافل الماصونيّة المصريّة وانسحابه منها نهائيّا⁷.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشّايبي نبّه إلى عمق علاقة الماصونيّة بقضيّة فلسطين وفكرة مشروعيّة وجود وطن يهوديّ بها من خلال الدّور الذي لعبه المحفل الوطنيّ الأكبر المصريّ برئاسة "الأستاذ الأعظم إدريس راغب"⁸.

2-2- في المغرب العربيّ وتونس تحديدا:

لقد سبق لنا أن أمحنا إلى أنّ تقاطع الماصونيّة مع التّوسّع الإمبرياليّ المتجسّد في حملة بونابرت على مصر وتخطيطه لاكتساح الجزائر وهو ما حدث سنة 1831. وإذا كان ذلك الاستعمار قد أثار حركة مقاومة بقيادة

1- المصدر نفسه، ص 71.

2- أشرنا في ما تقدّم إلى ماصونيّة بونابرت وتخطيطه لاحتلال الجزائر وتونس بعد مصر.

3- المصدر نفسه، ص 44.

4- المصدر نفسه، ص 46.

5- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

6- المصدر نفسه، ص 44.

7- المصدر نفسه، ص 32-33.

8- المصدر نفسه، ص 48-49.

الأمير عبد القادر، فإنه سرعان ما تم احتواؤها، بل إنه تم استدراج الأمير عبد القادر للانضمام إلى المحفل الماصوني هنري الرابع سنة 1861 بباريس¹.

ولم يكن ذلك الانتساب الماصوني عفويًا، وإنما كان عملاً مقننًا سبقته دراسة دقيقة لشخصية الأمير المعروفة بمروءتها وتسامحها. وقد تمت تلك الدراسة عن طريق ليون روش الكاتب الخاص للأمير عبد القادر (1837-1839) الذي افترض دوره التجسسي بالجزائر والمغرب².

ولئن كان الأمير عبد القادر قد انسحب من الماصونية سنة 1877 بعد قرار محفل الشرق الكبير الفرثسي التخلي عن البند الأول من الدستور الماصوني الذي ألغى الاعتقاد في "المهندس الكبير (الله) وأزليّة الروح"³، فإن فرنسا الاستعمارية استفادت منه في تدعيم نفوذها بالشرق بعد ترحيله واستقراره مع عائلته بدمشق سنة 1854 بتوجيه خفي من نابليون الثالث المتأثر بالسان سيمونية والمنضوي ضمن الماصونية⁴.

يرجع المؤلف تأسيس المحافل الماصونية بتونس إلى وقت مبكر قبل انتصاب "الحماية" الفرنسية بسبعين سنة. إذ تم تأسيس أول محفل سنة 1812 تحت اسم Sant- Jean d' Ecosse L'impériale على أيدي مجموعة من المرسيليين (أهل مرسليليا). كما بعث الشرق الكبير لبارمو محفلاً بقرطاج وأوتيك Carthaginede Utica سنة 1838 وتلته محافل أخرى بتونس وبعض مدنها⁵.

تشبه عملية تأسيس المحافل الماصونية المبكرة بتونس إلى أن مسألة انتصاب الاستعمار المباشر سنة 1881 تحت اسم الحماية الفرنسية كانت عملاً مركزاً ومنظماً. وهي أعمق من أن تكون عملية احتلال عسكري يستهدف نهب الموارد والثروات المادية، وإنما تستهدف أساساً ترسيخ الثقافة الفرنسية وبت الروح في الموروث المسيحي والروماني باعتبار أن تونس كانت قبل الفتح الإسلامي مقاطعة رومانية.

لذا فقد اكتسح الاختراق الماصوني بتونس جميع المجالات الإدارية والثقافية⁶ والسياسية ضمن برنامج "فرنسة تونس". ولم يسلم من ذلك حتى أبرز رموز الحركة الوطنية. ولما كان من المتعذر تفصيل كل تلك النواحي، فإننا سنكتفي بنموذجين يهتمان زعيمين بارزين للحركة الوطنية هما الشيخ عبد العزيز الثعالبي والأستاذ الحبيب بورقيبة.

يؤكد المؤلف الاختراق الماصوني المبكر للنخبة التونسية. ويقدم عديد الأدلة التي تدعم رأيه من ذلك أن الشيخ الثعالبي مؤسس الحزب الدستوري وأحد قيادات حركة الشباب التونسي⁷ قد كان مديناً بالولاء

1- المصدر نفسه، ص 49.

2- راجع هامش رقم 2، ص 51.

3- المصدر نفسه، ص 82.

4- المصدر نفسه، ص 52.

5- المصدر نفسه، ص 65-66.

6- مثلاً محاولات لويس ماشويل مدير التعليم العمومي التدخل في طرق تعليم القرآن الكريم وتعصير التعليم الزيتوني. راجع:

المصدر نفسه، ص 72.

7- من زعمائها علي باش حامبه وعبد الجليل الزاوش الذي سعد صعوداً في سلم الوظائف الإدارية والسياسية التونسية بفضل الدعم الماصوني له. راجع: المصدر نفسه، ص 80-84.

للماصونية¹. وقد تنوّعت المستندات التي اعتمدها المؤلّف في إثباته لذلك الاتّهام منها ما يتعلّق بانتسابه للجامعة التّونسيّة للفكر الحرّ التي تعدّ من فروع الدّعوة الماصونية مثلما يثبته التّقريران الرّسميان لأشغال المؤتمرين للفيدراليّة الأمميّة للفكر الحرّ المنعقدين بروما أيام 20-22 سبتمبر 1904 وباريس أيام 3-7 سبتمبر 1905. فضلا عن عودته للنسخة الأصليّة المكتوبة باللّغة الفرنسيّة من كتاب "روح التّحرّر في القرآن" المنسوب إلى الثعالبي، بينما هو مؤلّف جماعي شارك فيه رفيقاه سيزار بن عطّار والمهاشي السبعي. وقد جاء في إهداء ذلك الكتاب -الذي حذف من التّرجمة العربيّة ما يؤيّد ماصونية الثعالبي².

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشايبي قد استعان كذلك ببعض الوثائق الأرشيفيّة³، وبعض الصّحف الفرنسيّة الصّادرة في تلك الفترة لتأكيد انتماء الثعالبي لمحفّل الشّرق الأعظم الوطنيّ المصريّ أثناء إقامته بمصر بين سنوات 1897-1902⁴.

بيد أنّ المؤلّف لم يستطع تقديم رؤية مقنعة في خصوص ماصونية بورقيبة أوّل رئيس للجمهورية التّونسيّة (1957-1987). إذ غلب التّناقض على مواقفه واستنتاجاته. فهو من ناحية يشير إلى توافق بورقيبة مع بعض المبادئ الماصونية مثل الفكر الحرّ وتحرير المرأة المسلمة وطبيعة النّظام الجمهوري⁵، وتأثره بالمفكر الاشتراكيّ الماصونيّ داعية السّلم فيلسيانشلاي Felicien Shollay والمحامي الرّاديكاليّ الماصونيّ قسطون برجري⁶ Gaston Bergery. لكنّه من ناحية أخرى يذهب إلى أنّ انضمام بورقيبة للماصونية لم يتمّ إلّا سنة 1972 في فترة رئاسته لتونس أثناء زيارته إلى مقرّ الشّرق الكبير الفرنسيّ في شهر جوان 1972⁷ استنادا إلى أحدث القواميس الماصونية الصّادرة مثل قاموس جان مارك أركتنقي Jean Marc Aractingi الصّادر سنة 2018 والقاموس الصّادر سنة 2006 تحت إشراف دانيال ليقو⁸ Daniel Ligou.

ولا شكّ أنّ هذا الرّأي غير منطقيّ لأسباب عديدة منها ما يتعلّق بتناقضات المؤلّف فقد أشار إلى أنّ بورقيبة كان ماصونيا دون مئزر⁹. تعامل مع الماصونية تعاملًا وظيفيا شبيها بتعامل الأفغانيّ معها حين وظّفها في خدمة رهان التّحرّر من الاستعمار خاصّة في ظلّ وجود تيار داخل الماصونية معارض لفكرة الاستعمار. بينما يصرّ من جهة أخرى على أنّ بورقيبة لم ينضمّ للماصونية إلّا سنة 1972!!! وهو طرح لا يستقيم خاصّة إذا ما عرفنا مسارات الحركة الوطنيّة التّونسيّة ووجود بعض القادة الأفذاذ ضمنها مثل الرّعيم النّقابيّ

1- المصدر نفسه، ص 87.

2- للاطلاع على فحوى ذلك الإهداء راجع: المصدر نفسه، ص 91.

3- راجع هامش رقم 1، ص 29.

4- مثل La dépêche tunisienne في عددها الصادر يوم 1 سبتمبر 1903. و Le courrier Tunisien الصادر يوم 15 ماي 1903.

راجع المصدر نفسه، ص 88-89.

5- المصدر نفسه، ص 88.

6- المصدر نفسه، ص 101-102.

7- المصدر نفسه، ص 100.

8- المصدر نفسه، ص 102-103.

9- المصدر نفسه، ص 101.

فرحات حشاد الذي اغتيل سنة 1952 وصالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد الذي تمت تصفيته سنة 1962 إثر خلافه الشهير مع بورقيبة حول اتفاقيات الحكم الذاتي. كل هذه المؤثرات وغيرها تجعل الباحث غير مطمئن إلى فرضية إمكانية تسليم فرنسا "استقلال" تونس لشخصية غير مضمونة الولاء لنسقها الثقافي الماصوني الذي يمثل الجناح الثقافي والأيدولوجي للاستعمار وما بعد الاستعمار.

3- خاتمة:

يكتسب هذا الكتاب قيمة معرفية ذات بال خاصة في مجال إبراز تاريخ تطوّر الأفكار بالعالم العربي وعلاقتها بالبنى العميقة للظاهرة الاستعمارية والدولة التسلطية باعتبار أن الماصونية لم تقتصر على اختراق النظم الإدارية والسياسية والثقافية العربية، وإنما ذهبت إلى أبعد من ذلك حين أضحت استعماراً ثقافياً واستلاباً أيديولوجياً يروم مسح الشخصية الوطنية والهوية الحضارية مثلما افصحت عنه الحالة التونسية بدقة ووضوح.

ولعل ذلك أحد أسباب تعثر مشاريع الحدأة بالعالم العربي. إذ لم تؤسس على دعائم معرفية حقيقية، وإنما تمت في إطار تسوده المخاتلة والمخادعة والريبة والخوف والمهادنة. وهو ما يفسر ضعف مفاهيم المواطنة والعدالة الاجتماعية والمساواة ومن ثمة تعثر عمليات الانتقال الديمقراطي والازدهار الحضاري.

